التراث الثقافي التنزاني في كتاب «رحلة إلى مهد البشرية»

20 - يناير - 2026

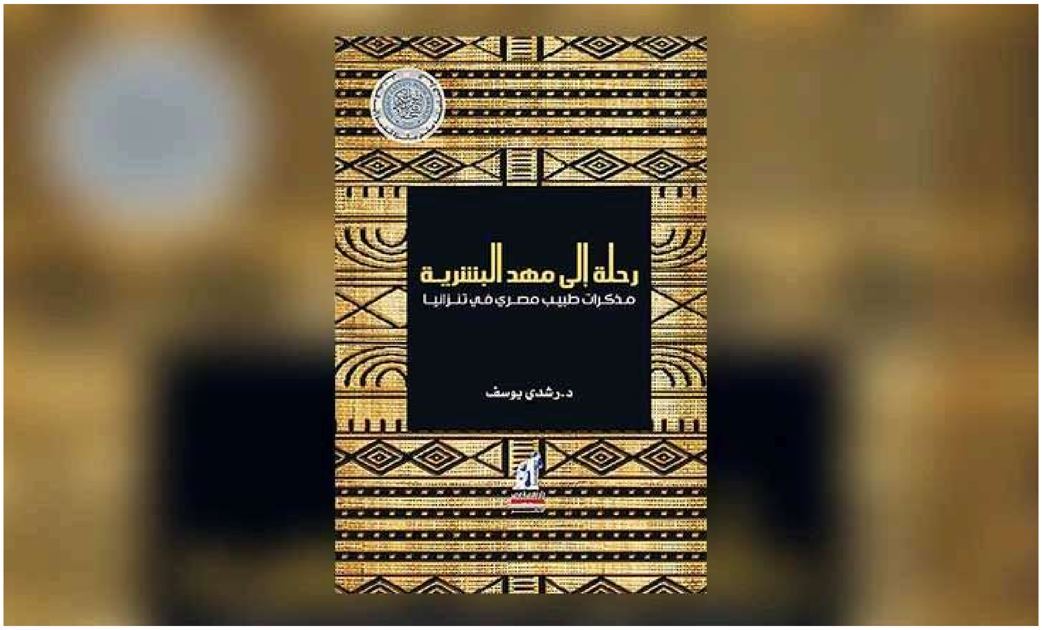

يمثل كتاب «رحلة إلى مهد البشرية: مذكرات طبيب مصري في تنزانيا» لرشدي يوسف، تجربة أدبية وإنسانية فريدة، تمزج بين أدب الرّحلات المعاصر، والتأملات الثقافية، والملاحظات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية. عمل الكاتب طبيبا مُوفدا إلى تنزانيا، ووثق في كتابه انطباعاته ومشاهداته بأسلوب ساخر وعميق في آن واحد، مقدما صورة بانورامية عن بلد لم نعرف عنه إلا القليل، وتتحول التجربة الشخصية إلى شهادة إنسانية واسعة الطيف.

لم يُحدد رشدي يوسف تاريخ رحلته، ولكن من خلال السياق فقد حدثت بين 2005 و2010 ولمدة أربع سنوات، وقد صدر الكتاب في طبعته الأولى عام 2011، عن دار نهضة مصر في القاهرة، في 139 صفحة.

الطبيعة جمال آسر

الطبيعة ليست من التراث الثقافي لأي مكان، ولكنها عامل مؤثر وفاعل في هذا التراث، ومن هنا؛ لا بأس من الإشارة السريعة إليها، حسبما جاء

في الكتاب. تتمتع تنزانيا بتنوع طبيعي مذهل، من جبال وسهول، وبحيرات وبحر محيط وأنهار وشلالات، وغابات ومحميات وشواطئ وجزر وغيرها. يصف الكاتب طريقه من دار السلام إلى العاصمة دودوما: «تحرك ركبنا، فلما فصلت السيارة وألقت خلفها مدينة دار السلام، استقبلت طريقا هو السحر، لوحة فنية تتماوج فيها ألوان الطبيعة، الأخضر من الأشجار الكثيفة، التي تحف بالطريق وتتراقص في السهول، وقد تتقافز الأشجار أحيانا فتصعد إلى الجبال التي تنتصب فجأة على مد الشوف، والأسمر من وجوه الناس وطين الأرض، والأبيض من قصور الأثرياء وأكواخ الفقراء التي تتناثر بين الأشجار، والأصفر من صخور وعرة تطل بوجهها متمردة على استواء الأرض، أو جبال تسافر في السماء كي تغسل رأسها في السحاب».

ويصف موقع مدينة (موروجورو) وطبيعتها: «تلك الساحرة التي تستريح في دلال في حضن سلسلة جبال (أولوجورو)، التي تمتد من وسط كينيا إلى وسط تنزانيا، ويصل ارتفاع تلك الجبال إلى كيلومترين ونصف الكيلومتر بمحاذاة المدينة، والمدينة تحتوي على 400 كيلومتر مربع من الغابات، منها 270 غابة جبلية فيها 15 نوعا نادرا من الطيور، و11نوعا من الثدييات».

زار الكاتب غابة مكومي المفتوحة بحيواناتها دون حواجز، التي تبلغ مساحتها 3220 كيلومترا مربعا، ويوجد فيها 400 نوع من الطيور، «وفيها نوع نادر من الأسود يستطيع أن يتسلق الشجر، أما زراف هذه الغابة فهو يمثل حلقة وسط بين الزراف الصومالي وزراف الماساي، فالزراف الصومالي أصغر حجما وأغمق لونا من زراف الماساي الأطول رقبة والأفتح لونا».

الطقوس والعقائد

تشكل الطقوس الدينية والاجتماعية جزءا جوهريا من الحياة اليومية في تنزانيا، وتأخذ أبعادا غريبة ومؤثرة. ويعرض المؤلف نماذج منها مثل، «رقصات المآتم»، حيث يقول: «الرقص هنا يكون في الأفراح وفي المآتم كذلك، ولقد مررت صبح هذا اليوم بقوم يخرجون جنازة من دار لهم، فسمعت إيقاعا حزينا وشاهدت رقصا بطيئا مُلتاعا». وفي موضع آخر يقول: «وقد حضرت جنازة في تنجانيقا وجدت النساء فيها يرقصن على أنغام موسيقى تشوي القلب شيا». كما أشار إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف حيث تُنشد بردة البوصيري بلحن ونغم، دون أن يفهم المنشدون معاني الكلمات، يظنون أنّ إنشاد البردة نوع من العبادة، مما يدل على التداخل بين الشعائر الدينية والتراث الشعبي. وقد لفت نظره أنّ مترجمته في المستشفى كانت تعرف قبيلة كل مريض «من خلال السلاسل البديعة التي يرتديها الرجال والنساء على السواء، ومن خلال الأطواق الكثيرة والخروم الكبيرة التي يحدثونها في آذانهم»، وينبني على هذا التمييز اختلاف اللغة لكل قبيلة، مما قد يستدعي الاستعانة بمترجم آخر، أو الاكتفاء بلغة الإشارة.

ويشير الكاتب إلى أنّ الاعتقاد بالقوى السحرية والأرواح الشريرة، ما زال شائعا في تنزانيا، ولعل هذا من تفشي الجهل وبساطة الناس، ويضرب مثالا: «ينتشر بين الأوساط الشعبية اعتقاد بأنّ العكوسات التي يكتبها السحرة والدجالون لها القدرة على إيقاع الضرر بالعدو، ومن السلوكيات الشائعة لدى الطبقات الشعبية إذا نزلت بأحدهم نازلة من مرض أن يقوم أهله بعمل عروسة تمثل الروح الشريرة، ثم يقومون بتخريمها بالإبرة قبل حرقها استئنافا لطقس سحري كان يفعله أسلافهم». ويذكر الكاتب طقسا غريبا عجيبا غير مألوف في العالم، يقول: «وقد علمت من الشيوخ الذين جالستهم أن دفن الميت عند الماساي قاصر على رؤساء العشائر؛ لأنّهم يعتقدون أنّ دفن الجثث يضر التربة، لذلك فهم يتركون موتاهم للضباع التي تأكل الجيف وتنظف البيئة، والجثة التي لا تأكلها

الضباع تعتبر جثة إنسان آثم، يجلب لأهله الخزي والعار، لذلك يلجأ بعضهم إلى وضع شحم الخراف ودماء البقر فوق الجثة كي يغري الضباع بأكلها، وذلك من أعجب ما وجدته في تنزانيا».

العادات والأعراف

من أبرز العادات الاجتماعية التنزانية المدهشة التي رصدها الكاتب نظام الزواج، حيث تباع «دعوات الحفل» لتمويل تكاليف الزواج، وأحيانا يحصل العروسان على فائض مالي بعد الحفل. كما يُلاحظ تعدد الزوجات حتى بين المسيحيين، وتقبل المجتمع لهذا الواقع، بل توجد حالات لزواج المسلم – خاصة من الأغنياء- بأكثر من أربع، وقيل للكاتب: «إنّ ما زاد على النصاب هو زواج غير رسمي، وبالتالي فلا تعارض»، ويعلق على ذلك ساخرا «فقه إفريقي عجيب». أما التسوّل، فهو يُعد «مهنة مشروعة»، لها احترامها في الثقافة العامة؛ إذ يُنظر للفقير والعاجز بوصفه مستحقا وليس متطفلا. كذلك تحظى «الخادمة/مديرة المنزل» بوضع اجتماعي محترم، وقد تكون جامعية وتجيد اللغات، وتذهب للكوافير، ولها غرفة خاصة وإجازة أسبوعية، وتمثل نظاما مقبولا اجتماعيا وأخلاقيا في البلاد. والطريف أنّ مديرة المنزل «قد تستأجر لبيتها مديرة منزل بينما تخرج هي للعمل مديرة لمنزل آخر، وهذا ما كان من أمر «جين» التي عملت مديرة لمنزلي، بينما كان لمنزلهم مديرة أخرى، وتلك عجيبة من العجائب التي شهدتها في تنزانيا».

وبسبب من الفقر والحاجة يغلب على البائعين المتنقلين «إلحاح لا يُطاق». وفي زنجبار «كل شيء يخضع للفصال، والأيمان المغلظة يعقبها التراجع، وذلك مسلك يؤكد الأصول العربية الصميمة لأهل الجزيرة». وللبقر والأطفال مكانة اجتماعية كبيرة عند أفراد قبائل الماساي شبه البدوية «فإذا امتلك البقر ولم ينجب فهو فقير، وإذا أنجب أطفالا وكانت ثروته أقل من خمسين بقرة فهو فقير، لذلك فإنّ دعاءهم الأثير هو أن يمنحهم الله الأبقار والأطفال، وهم يؤمنون إيمانا راسخا بأنّ الإله قد

وهبهم كل البقر الذي على الأرض، لذلك فإنّ سرقة الماشية من القبائل الأخرى هي حلال لأنّها استعادة لحقوق مغتصبة، أو هي بضاعتهم ردت إليهم».

ومن أغرب عادات قبائل الماساي تعدد الأزواج ما دام التعدد يجلب لهم مزيدا من البقر، وهناك ما هو أغرب وأعجب، يقول الكاتب: «في العادة لا يؤخذ رأي البنت في زوج المستقبل ما دام قادرا على دفع كمية مناسبة من الأبقار مهرا لها، لكن للمرأة الحق في تعدد الأزواج كما للرجل الحق في تعدد الزوجات ومن دون حد أقصى ما دام البقر متوافرا، وتلك عجيبة من عجائب القوم هنا، ومن المعتاد أن يمنح رجل الماساي سريره للضيف، ولكن من حق الزوجة أن تقرر إذا كانت ترغب في النوم مع الضيف أم لا، وإذا قبلت فإنّ الطفل الذي ينتج عن هذه المعاشرة ينسب إلى الزوج لا إلى الضيف».

بساطة الإنسان التنزاني

أشار الكاتب إلى التنوع القبلي والديني والثقافي الذي يميز تنزانيا، حيث تنتمي البلاد إلى أكثر من 120 قبيلة، من دون وجود صراعات مذهبية أو عنصرية، ومن الشائع أن تجد في القبيلة الواحدة أفرادا يتبعون ديانات متعددة، من دون أن يلفت ذلك نظر أو استنكار أحد. ويكشف كيف أنّ بعض السكان، رغم تسجيلهم كمسيحيين، لا يزالون يمارسون ممارسات دينية تقليدية تنتمي إلى معتقدات افريقية محلية. وهذا دليل على ما يتمتع به الشعب التنزاني من طيبة وتسامح وتفهم وعدم تعصب، ورغبة في العيش بسلام.

صوّر المؤلف الشعب التنزاني بأنّه في غاية الأدب، لا يرفع صوته، ولا يتشاجر، والابتسامة لا تفارق وجوههم، يقول: «طوال إقامتي لم أسمع صياحا أو أشاهد شجارا. الشباب يفسحون الطريق لكبار السن، والأطفال ينحنون ويقدمون احترامهم بكلمة «شيكا-مو» وهي كلمة سواحلية تعني: أقدم احترامي، يقولها الصغير للكبير، وقد اعتدت وأنا في طريقي

إلى المستشفى أن أمر بعدّة أطفال، ما إن يشاهدونني على البعد حتى يقفوا صفا واحدا قائلين باللغة الإنكليزية «صباح الخير يا سيدي». ولا يختلف أهل جزيرة زنجبار عن طبيعة غالبية التنزانيين، يقول: «شواهد فقر أهل الجزيرة لا تخطئها العين، الشباب يتسكعون في كل مكان، ورغم الفقر والبطالة فإنّهم في غاية الأدب، لا ترتفع أصواتهم، ويسارعون فيعرضون خدماتهم عند الطلب، ويقنعون بما أدفعه لهم».

ومن صفات المواطنين التنزانيين الجميلة، كما لاحظها الكاتب أنّ «وجوه الناس هنا سمراء باسمة، على الرغم من مظاهر الفقر التي لا يمكن إخفاؤها»، فالناس يبدون قنوعين، صابرين، يعيشون في تناغم مع الطبيعة، ويتوزعون على أرض شاسعة في بيوت محاطة بالخضرة، ويبدأ يومهم فجرا وينتهي مع غروب الشمس، في توافق مع إيقاع الطبيعة، وتكشف عن بُعد قيمي راسخ لدى الشعب التنزاني.

والرقص طبيعة عند التنزانيين ومهارة يتقنها الجميع، يقول الكاتب: «ستجد هنا أرقص خلق الله، ولنساء تنزانيا في الرقص صنعة عجيبة، وحركة سريعة، فلا يلحق أعلاهن بأسفلهن من شدة الحركة، ورجال تنزانيا أرقص من نسائها وأرشق حركة». وفي موضع آخر يقول: «فإن سمعوا موسيقى رقصوا من فورهم، والرجال هنا أرقص من النساء، والأوساط الافريقية على الشعرة، فهي تهتز مع أي موسيقى». وحول ما يتداول عن كسل الأفارقة وجهلهم، يقول: «يكذب من يقول لكم إنّ الأفارقة كسالى؛ فهم مهندسون مهرة وعمال يتقنون أعمالهم، وحرفيون رفيعو المستوى، وفنيو كمبيوتر على درجة عالية من الخبرة والاستيعاب، لكن سرعة أو بطء الأداء يرتبط بتطور نمط الإنتاج السائد».

ويشير الكاتب إلى بساطة الإنسان التنزاني وعفويته، وخلوه من العقد والوقار المزعوم والقيود الاجتماعية، يقول: «الناس هنا يبتكرون طرقا بسيطة للتسلية والتواصل الإنساني». وينقل مشهدا يؤكد ذلك رآه وهو في طريقه إلى غابة مكومي، يقول: «على طول الطريق تناثرت القرى

الصغيرة حيث الفقر لا تخطئه العين، لكن الطبيعة هنا ترقص فرحا ومعها يرقص البشر، أهل تنزانيا يصنعون بهجتهم بأقل التكاليف». لا توجد في تنزانيا طبقية ولا قيود اجتماعية أو طائفية أو إقليمية «لا توجد في تنزانيا قبائل شريفة ولا قبائل ضعيفة، ولا توجد عقبات أمام تزاوج أبناء القبائل من بعضهم، ولا توجد قبائل مسلمة وأخرى مسيحية، بل قد تتعدد الأديان بين أفراد القبيلة الواحدة دون أن يلفت ذلك نظر أحد». وهذا يؤكد تسامح المجتمع التنزاني وانسجامه الإنساني، وعدم التفاته للاختلافات الشكلية التي ليس له يد فيها.

ويختتم الكاتب كتابه بفقرة تكشف معدن أهل تنزانيا وطيبتهم، يقول: «في أيامي الأولى في تنزانيا كنت أطرب عندما أعالج وزيرا، أو أقابل مسؤولا في الحكومة، ولكني في الفترة الأخيرة صرت لا أهتم إلا للفقراء الذين يأتون إليّ من قراهم البعيدة، العطف على هؤلاء المساكين أكسبني معاني إنسانية كنت أجهلها، فتعلمت منهم الابتسام عند الضيق. في أرواحهم ثراء وإن حاصرهم الفقر، وفي قلوبهم عواطف لا يبخلون عليَّ بها، حينما أسير في الطريق فيحييني كبارهم ويداعبني أطفالهم، أما زوجتي فإنّهم ينادونها بقولهم «ماما دكتور». ولما علم مرضاي الفقراء أنني عائد إلى بلادي انحنى كبار السن وهم يشدون على يدي، بينما عانقتني العجائز باكيات فوجدت حضن أمي في كل واحدة منهن، وبعد السلام الحار كانوا يتراجعون للخلف ملوحين بكلتا يديهم قائلين: «كواهيري» وهي كلمة في لغتهم تعني «إلى اللقــاء».»

ذاكرة الحجر

يقدم المتحف الوطني في دار السلام صورة مصغرة لذاكرة البلاد، بما يحتويه من أقنعة وأسلحة تقليدية وطبول عملاقة كانت تدق للحرب أو الاحتفالات، وتماثيل تمثل الحيوانات البرية، تعكس المعروضات ثراء ثقافة التنزانيين. أما جزيرة زنجبار فتمثل صورة ناطقة للحضور العربي القديم بكل ما يحمله من طراز معماري، وأثر لغوي وديني وثقافي

عميق، ويظهر ذلك من خلال قصور العُمانيين القديمة ومساجدهم وزخارفهم القرآنية وأسواقهم التقليدية وحُليهم، في تداخل ثقافي راسخ منذ قرون.

وبعد؛ تكمن أهمية هذا الكتاب في كونه لا يكتفي بتسجيل المشاهدات، بل يذهب لتحليل الخلفيات الاجتماعية والتاريخية والسياسية لها. كما أنّه يدمج بين السرد الأدبي والمعلومة العلمية التي يعمّقها اعتمادا على المصادر والمراجع التاريخية والأنثروبولوجية، متطرقا إلى مواضيع مثل تطور الإنسان في منطقة (أولدفاي جورج) التي تُعرف بـ «مهد البشرية»، ويشرح كيف ساهمت الحفريات في هذه المنطقة في تغيير المفاهيم الأنثروبولوجية حول أصل الإنسان وتطوره، وهو ما يضيف بعدا معرفيا نادرا في أدب الرحلات.

إنّ «رحلة إلى مهد البشرية» ليست مجرد مذكرات طبيب، بل مرآة لثقافة إفريقية ثرية، ونافذة على تنزانيا كما لم نرها من قبل، إذ يضيء الكتاب تفاصيل الحياة اليومية، ويجعلنا نعيد التفكير في معنى التحضر والتنوع والتسامح، في زمن يسوده التناحر الثقافي والطائفي، ويقدم لنا الطبيب رشدي يوسف درسا بليغا في الإنسانية والملاحظة العميقة، يجعلنا ندرك أنّ فهم الآخر لا يتم عبر المسافات، بل عبر الإنصات والتعايش والتأمل.

كاتب أردني

كلمات مفتاحية

رشدي يوسف | موسى إبراهيم أبو رياش

اترك تعليقاً

لن يتم نشر عنوان بريدك الإلكتروني. الحقول الإلزامية مشار إليها بـ *

التعليق *

الاسم *

البريد الإلكتروني *

إرسال التعليق

اشترك في قائمتنا البريدية

أدخل البريد الالكتروني *

اشترك

حولنا / About us

أعلن معنا / Advertise with us

أرشيف النسخة المطبوعة

أرشيف PDF

النسخة المطبوعة

سياسة

صحافة

مقالات

تحقيقات

ثقافة

منوعات

لايف ستايل

اقتصاد

رياضة

وسائط

الأسبوعي

جميع الحقوق محفوظة © 2026 صحيفة القدس العربي

adberries